

ثقافة العقل وعقل الثقافة

يُتَمي كل فرد وكل جماعة لثقافة معينة ذات عادات وتقاليد وأعراف متوارثة تحكم سلوكياتهم. وهذه تخضع في كل الحالات تقريباً لمبادئ ومرجعيات فكرية مُستمدة من أصول فلسفية أو دينية. وبينما تقوم العناصر الثقافية، خاصة العادات والتقاليد والأعراف بتوجيه أفعال وأقوال ومواقف الأفراد في المجتمع، تقوم المبادئ والمرجعيات الفلسفية والدينية بتحديد الإطار العام الذي يُوجه الثقافة بشكل عام. وهذا يجعل المبادئ والمرجعيات تشكل فضاء يتسع أحياناً ويضيق أحياناً ويحدد قدرة الثقافة على التحول والتطور.

إن انتماء شخص ما لثقافة معينة يعني قبول ذلك الشخص بالالتزام بعناصر ثقافته الأساسية وبالخلفيات المرجعية التي تركز عليها من مبادئ فلسفية وتركبة فكرية توارثية. في المقابل، تقوم كل ثقافة بتقرير، ما هو جيد وما هو سيء، ما هو سليم وما هو غير سليم، ما هو مسموح به وما هو غير مسموح به، ما هو مُحَبَّب وما هو مَكْرُوه، ما هو جميل وما هو قبيح، مما يجعلها تتحكم إلى حد بعيد في أقوال وأفعال ومواقف وسلوكيات الأفراد المنتمين إليها.

حين تكون المبادئ والمرجعيات الفلسفية التي تعتمد عليها الثقافة جامدة وغير قابلة للتأويل، تكون الثقافة تقليدية تميل عناصرها نحو الثبات والبعد عن التطور والواقعية. وهذا من شأنه أن يجعل كل شخص يتمسك بحرفية ثقافته التقليدية وبمرجعياتها التراثية عبارة عن آلة تتحرك تبعاً لبرنامج محدد لا يملك حرية تغييره أو تعديله. إن الشخص الذي يُلْزَم نفسه بتقاليد وعادات ثابتة، ويؤمن بمرجعيات لا يشك في صحتها أو ديمومة صلاحيتها يُعفي عقله من مهمة التفكير، وبالتالي لا يجد سبباً لاستخدام عقله لمعرفة الفرق بين الصواب والخطأ، بين المفيد والمضر، بين العلم والجهل. وهذا يحرم الإنسان من فرصة التعلم من تجاربه الحياتية، لأن كل ما يقع له يصبح خاضعاً لمقاييس الحظ والمؤامرة، لا غير.

إن الإنسان الذي لا يستخدم عقله يهدر مواهبه، ويحرم نفسه من فرصة اكتشاف قدراته الخلاقية، وحتى من فرصة رسم أهداف سامية لحياته. إن الإيمان بالحظ والاعتماد على المجهول في المجتمعات العربية التقليدية، والابتعاد عن السلوكيات التي تخالف التقاليد مثل حب الجنس الآخر والنزوع نحو الحرية يحرم الفرد فرصة العيش تجارب حياتية عميقة مثل الفرح المثير والحزن المرير تُدمي القلب وتُبكي العين وتستثير الوجدان، والغوص في تأملات فكرية تُخير العقل وتقلق الضمير. وحيث أن الكثير من مغريات الحياة الجسدية والفكرية تتناقض مع الموروث من عادات وتقاليد وثوابت، فإن خروج الإنسان على المألوف يقود عادة إلى الشعور بالندم، ذلك السم الذي يفسد مذاق كل متع الحياة. وحين ينقلب إنسان من الإيمان إلى عدم الإيمان مرة واحدة، يجد نفسه يتحرك بناء على غريزة حيوانية تجسد أسوأ ما في الإنسان من حسد وغيرة وجشع واستهتار وعدوانية، وليس بناء على عقل ناضج يحسن التفكير والتدبير.

الإنسان السوي هو شخص يعيش مع العقل وبالعقل ومن أجل العقل، وحين يقرر القيام بعمل ما يسأل نفسه ثلاثة أسئلة رئيسية: لماذا، أي ما هو السبب وما هو الهدف، ومتى، أي ما هو التوقيت الأفضل، وكيف، أي ما هي الوسائل الأسلم والأكفَل للوصول إلى الهدف المنشود.

حين يفقد الإنسان حقه في استخدام عقله واستغلال مواهبه والإحساس بعمق مشاعره، يفقد الجزء الأكبر من إنسانيته.